

الدكتور

مَلَكُ عَيْدَ

المركب الفكري الدقيق
عند أبي نواس

١٩٩١



الفهرس

القسم النظري :

القانون ومنطوقه

الراوند الفكرية الرئيسية الثلاثة عند أبي نواس

القسم التطبيقي :

١ - الراوند اليوناني

٢ - الراوند العربي

٣ - الراوند الفارسي

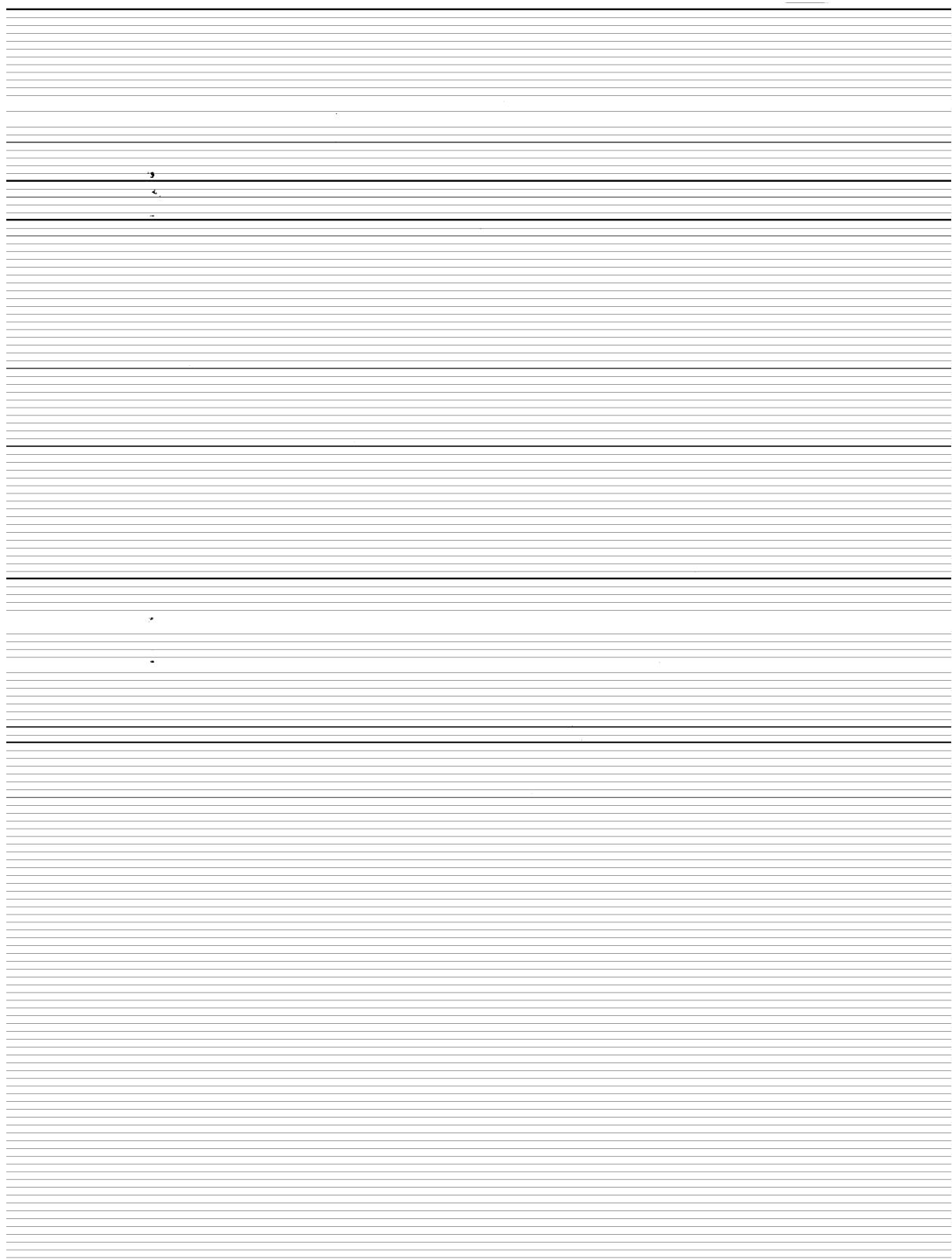
خاتمة



القسم النظري

– القانون ومنطوقه

– الروايد الفكرية الرئيسية الثلاثة عند أبي نواس



القانون :

هذا الكتاب هو في الواقع تطبيق لقانون خطرت له فكرته منذ فترة غيرقصيرة حتى تبلور عندي في شكله المحدد ، وهذا القانون يفاده أن هناك تناسبًا طرديا واضحا بين المقدرة الفنية للشاعر وبين عدد الخطوط المتمثلة في إشعاعه الفكري أو الخيوط في نسيج هذا الفكر فكلما زاد عدد هذه الخطوط أو الخيوط التي يتكون منها فكر الشاعر ، زادت مقدرتها الفنية وارتفعت مكانته وزاد تأثيره . فلا يكفي أن يطلع الشاعر على أعمال من سبقوه من الشعراء ليكون شاعرا عظيما إذ يمكن أن يكون هذا الشاعر شاعرا ماهرا فقط في فنه وفي الأدوات المعروفة لما يمكن أن يسمى بحق صناعته الشعرية وأهمها التعامل الفني الصحيح مع مادة الشعر وهي اللغة لكنه سيتحرك في إطار مرسوم محدود من فكر السابقين له ومن شيء من الفكر الذي يحصل عليه في مسار حياته أما الشاعر العظيم فإنه ذلك الذي يتسع أفقه الفكري لمختلف ألوان العلم والثقافة والفن وهذه الألوان كلها ستتصبب في إبداعه سعة وتنوعا وغنى وعمقا

ودقة .. والفرق بين الشاعر بين هنا هو نفس الفرق بين الضوء
أحادي اللون ذى الموجة الواحدة وبين ضوء الشمس الذى يحتوى
على جميع مختلف ألوان الضوء وأطوال موجاته من أقصرها ممثلاً
في أشعة جاما إلى أطوالها ممثلاً في الأشعة اللاسلكية . صحيح أن
ضوء الشمس يبدو لنا ضوءاً واحداً لكنه ضوء غنى باطواله الموجية
المتعددة ، ولكن تتأكد من ذلك الذى استخدمه إسحاق نيوتن وطلبه
منشوراً زجاجياً مثل ذلك الذى استخدمه إسحاق نيوتن وطلبه
ضوء الشمس إلى ألوانه السبعة الجميلة التي يمكن أن تراها العين
خارجية من السطح الآخر المنشود في غرفة مظلمة لا يحظى بها إلا
شعاع ضيق من ضوء الشمس ، لكن تبين بعد ذلك أن ضوء
الشمس لا يحتوى على هذه الألوان أو الأطوال من الضوء فقط بل
إنه يحتوى على أطوال موجية لا تراها العين لكن لها آثارها التي
يمتد إلى وجود واستمرار الحياة نفسها على كوكبنا الأرضى
الصغير من أشعة جاما حتى الأشعة اللاسلكية وهذا الذى فعله
نيوتن والذي فعله العلماء من بعده إجراءات ضرورية لتحليل ضوء
الشمس الذى يبدو لنا ضوءاً واحداً ، فهناك جهد لا بد أن يبذل

لتحليل ضوء الشمس إلى مكوناته الأساسية ، وكذلك هناك جهد
لابد أن تبذل نحن لتحليل الإشعاع الفكري للشاعر الكبير إلى
مكونات وعنصري وخطوته الأولية التي تكون هذا الإشعاع الذي
يبدو لنا واحدا صائرا من مصدر واحد هو هذا الشاعر الكبير الذي
له كل هذه المكانة وهذا التأثير ، ومن هذه المكونات ما يمكننا
التقلطه بسهولة ومنها ما هو خاف أو غير مباشر تماما كالأشعة
التي لا تراها العين في ضوء الشمس والتي تحتاج إلى جهد أكبر
لتعرف عليها.

وهذا البحث الذي بين أيدينا هو اختبار مدى صحة هذا القانون
الذي يربط بين المقدرة الفنية لشاعر كبير كلبني نواس وبين عدد
الألوان الثقافية التي يتكون منها فكره على أساس التناسب الطردي
بين المقدرة وبين عدد الألوان والعناصر المتماثلة في فكره لأنه كلما
زاد عدد هذه الألوان زاد أفقه اتساعاً والعكس بالعكس بشرط هام
جداً هو أن يكون تمثله للألوان الثقافية تمثلاً عميقاً وأن يكن مضمونه
لها مضموناً كافياً وبحيث تكون قد دخلت تكوينه الفكري بخولا
محكماً وأصبحت بالفعل خليوطاً أصيلاً في نسيجه وليس مجرد

أشتات من المعرفة من هنا وهناك يورد من الشواهد ما يدل به على أنه ألم إلماها فهناك فرق بعيد بين الحالين ، وهذا هو السبب في ضرورة دخول وصف هذه الألوان بالتمثيل والهضم الكاملين في منطق هذا القانون ، ومن أجل ذلك فإن عملنا في هذا البحث يتراكم أساسا على النص الشعري نفسه وليس على الأخبار والروايات التي تذكر لنا أن هذا الشاعر قد درس هذا العلم أو ذاك أو اهتم في حياته بهذه الفلسفة أو تلك لأننا نريد أن يكون درستنا للواقع ممثلا في النتاج الشعري الذي يهمنا بالدرجة الأولى .. نريد أن نحلل الخيوط والخطوط من نفس الإشعاع الفكري الصادر عن الشاعر وليس من شيء خارجي يشير إلى دخول هذا الخط أو العنصر في تركيبه .

واضح أننا في مثل هذا البحث أمام عمل دقيق حقا لأن حلينا لهذا المركب الواحد لطبيعة الإشعاع الفكري للشاعر يتطلب إدراكا للعناصر الحقيقة الدالة في هذا المركب من إشارات لن تكون كثيرة ولا مفصلة بحكم طبيعة الفن الشعري وهذه الإشارات علينا

أن تلتقطها التقاطاً وأن نقارنها بما ورد منها أو بما يماثلها في أعمال الشاعر ، وأن نعرضها على الخطفي الفكرية لعصر الشاعر ما أمكننا ذلك ، وأن نفهمها في ضوء التركيب الشامل لفكره لأن قيمة هذه الإشارات لا تتحقق إلا بهذه المقارنة وهذا العرض . لقد أردت أن اختبر تطبيق هذا القانون من التنااسب الطردي بين المقدرات الفنية وبين مختلف الخطوط والألوان في المركب الفكرى لأبى نواس الذى عاش أزهى عصور الحضارة العربية على الإطلاق بعد ان لاحظت الاشارات الواردة فى شعره الى مختلف ألوان الفلسفة والمنطق والعلم بالفلك والفقه والحديث وغيرها والواقع أنه يمكننا رد الألوان الفكرية عند أبى نواس إلى ثلاثة ثقافات نحار فى ترتيبها بحسب أولويتها أو أهميتها فى هذا المركب الفكرى هى العربية واليونانية والفارسية أما الرافد اليونانى لهذا الفكر فيظهر فيما ورد فى شعره من فكرة التولد السocraticية ومبدأ الهوية الأرسطي ، وأهم من ذلك لفهمه العميق لمعنى الفلسفة باعتبارها نظرية كلية شاملة فى علم من العلوم وهذه النظرة الشاملة لم تقف عند مفهوم الفلسفة وإنما تجاوزتها إلى نظرته الفنية أيضاً حين يرسم شيئاً ما بكلماته

فيحيط إحاطة «فلسفية» كاملة بهذا الشيء على نحو ما سنرى باذن الله في القسم التطبيقي من هذا البحث ، وأما الرافد العربي فيتجلى فيما ورد في شعره من إشارات إلى الفقه والحديث والاستنباط وعلم الكلام وماورثة الحضارة العربية من الحضارات القديمة في العراق ومصر من علم الفلك والحركة الظاهرة للشمس وحركتها السنوية وعلاقة الحركة بالزمان مما يدل على الفهم العميق الدقيق لأبي نواس لهذه الجوانب في إشاراته التي سنقوم بتحليلها للوقوف على مدى تمثل الشاعر لها وقدرته على استغلالها فنياً وإن كنا سنضم علمه بالفلك ، إلى الفلسفة لأن هذا العلم ظل يعد جزءاً منها حتى القرن السابع عشر الميلادي.

أما الرافد الفارسي عند هذا الشاعر والذي يعود إلى أصله الفارسي نفسه فيتجلى واضحاً في نزعته القصصية التي أبدزاها التصوير والحوار، أما التصوير فهو فيه بحق ابن الثقافة الفارسية بتركيزه على الليل ومحاذين الطبيعة والحياة الناعمة اللاهية التي تقوم على فلسفة التمتع بالحاضر ، ويتجلّى في ذلك الاختيار الموجي

الجميل للشاعر المغناه فى ليالى الطرف واللهو فى إشاراته إلى

قصائد الموى والوجد وطالعها ، إنه بحق ابن الثقافة الذى أبىزما
فيها ألف ليلة وليلة، وأما الحوار ف فيه براعة وحيوية وجمال لا مثيل
له عند شاعر آخر على طول الأدب العربى. هذه التركيبة أو الباقة
من ألوان الفكر والثقافة عند أبي نواس عناصر هذا المركب الفكرى
الفاتن عند هذا الشاعر وهى تثبت لنا صحة القانون الذى نحن
بصدد البرهنة عليه فى هذا البحث من التناسب الطردى بين المقدرة
الفنية للشاعر وبين عدد الألوان والخطوط الفكرية وتنوعها كما تظهر
فى شعره ذاته وكما يكتشفها التحليل الذى هو أشبه شيء بتحليل
الضوء الغنى إلى مكوناته.

لقد اكتسب الشاعر هذه الألوان المتعددة التى تنتمى إلى الروافد
الكبرى الثلاث اليونانية والعربية والفارسية كما نلمح فى الإشارات
التي سنعالجها في هذا البحث وهذا هو السر فيما نراه فى إبداعه
الشعرى من ثراء وتدفق وتميز حتى فى الموضع الذى لا تظهر فيها
هذه الإشارات بذاتها لكن تأثيرها واضح فى البناء التركيبى الفنى

لهذه الشخصية التي تتكلم في أي مجال فتحس بما وراء كلامها من
أعماق وأبعاد لا تصدر مطلاً عن شخصية أحادية لون الفكر
والثقافة . وأحب أن أضيف هنا شيئاً يؤيد صحة هذا القانون الذي
يربط بين عدد الخطوط الفكرية المتنوعة وبين مقدرة الشاعر الأدبية
ففي أثناء درسي للسيرة الذاتية لتوثيق الحكيم وجدت أن التميز
والتفوق لدى هذا الأديب الفنان الكبير في مجال الرواية إنما يرجع
إلى تعدد الألوان الفكرية التي حصل عليها أثناء وجوده في فرنسا
فقد كان له نهم كبير في الاطلاع على كل ما يقع تحت يده من كتب
التاريخ والفلسفة والاقتصاد والفن وحتى العلم في أشهر نظرياته لم
يحتمل عن الاطلاع عليه بشغف ونهم ، ومعنى ذلك أن الأديب أكان
شاعراً أم قصاصاً إنما يحقق تميزه بكترة الألوان التي يضمها
نسيجه الفكري ، ففي عصرين متباينين هما العصر العباسي الأول
والعصر الحديث ، وعند أدبين احدهما شاعر والأخر كاتب قصة
يتتحقق نفس القانون .. قانون التناسب الطردي بين عدد الألوان
الفنوية وبين المقدرة الفنية للأديب ولا شك أنه يرد على خاطرنا الآن
ذلك التعريف القديم للأدب بأنه الأخذ من كل فن بطرف باعتباره

أحد صور تأييد أهمية هذه العلاقة التي تجمع بين هذا الكم المتمثل في زيادة عدد الخطوط والألوان الفكرية المتمثلة تمثلاً حقيقياً كاملاً في ذهن الشاعر وبين هذا الكيف المتمثل في المقدرة الفنية ومدى ما يحققه الأديب من مكانة على أساسها ونحن نرى في تطبيق هذه العلاقة على أبي نواس نموذجاً طيباً لاختبار مدى صحتها أو صحة هذا القانون على حالات أخرى في التاريخ الطويل للأدب العربي بالتحليل الدقيق لفكرة الشاعر من واقع النص الأدبي نفسه بوجه خاص . والآن هيا بنا نلقي نظرة على الموقع التاريخي لهذه الرواية الثلاثة التي شكلت فكر أبي نواس :

بين المرحلتين القديمة والحديثة في تاريخ الحضارة البشرية اللتين قادتهما مصر القديمة والغرب الأوروبي تقع المرحلة الوسطى التي توزعت مراكزها بين أثينا والاسكندرية في حلقتيها الهلينية والهلينسنية وبين بغداد في الحلقة العربية التي تنتهي بها المرحلة الوسطى في الحضارة لتبدأ بعدها المرحلة الأوروبية الحديثة ، وهكذا ورثت الحلقة العربية الحضارة اليونانية التي كانت امتداداً للحضارة

المصرية القديمة بوجه خاص وسبقت المرحلة الأوروبية الحديثة مباشرة.... في هذا الموقع التاريخي من أزهى فترات النهضة العربية في القرن الثالث الميلادي عاش أبو نواس حيث حركة الترجمة النشطة في هذا العصر تزدهر العربية بثمار الفكر اليوناني الدقيق العميق الذي تزدهر بدوره من الحضارة القديمة في مصر ، وبعد أن كان علماء اليونان وفلاسفتهم ومنهم أفلاطون يقدمون إلى مصر طلبا للعلم ، فإن اليونانيين يعدون أن انقضى دور الفعال للحضارة المصرية القديمة وأصبحت مصر جزءاً من الامبراطورية اليونانية اختاروا الإسكندرية مقرًا للعلم وخلفهم عليها الرومان ، وظلت الإسكندرية عاصمة عالمية للعلم ستة قرون حتى فتحها العرب حيث تحول المركز العالمي للعلم إلى بغداد التي شهدت على يد الخليفة العباسى الأول تلك الفترة الزاهرة من النشاط العلمي الواسع ترجمة من اليونانية والهندية والفارسية، وتوسعاً في فتح المكتبات مما أنتج حركة عقلية واسعة في عهد الرشيد بلغت ذروتها في عهد المأمون قبل أن تأخذ في الانحدار مع استعانته المعتصم بالأئرak البچكمية والتورونية الذين قوى بهم التيار المعارض لحركة

الفلاسفة التي قادها المعتزلة في المشرق.

في هذه الفترة الظاهرة من الرقى العقلى عاش أبو نواس الذى تدل أخباره على أنه كان شغوفا بالعلم شغفا قويا فقد أسلمته أمه التي تزوجت بعد وفاة أبيه لعطار يرى له أعود البخور ، وكان الفتى يمضى ليلا إلى المسجد الجامع بالبصرة حيث حلقات العلم والأدب ، وكان الحسن يتنتقل بين هذه الحلقات المختلفة لا يفوته عالم أو راوية أو محدث أو فقيه إلا جالسه واستمع إليه وقد أشار أبو نواس إلى هذا العهد من الأقبال على العلم فى قصيده التي سنتناولها فيما بعد :

عفا المصلى وأقوت الكتب
منى فالربدان فاللبيب
فالمسجد الجامع المروءة والدي
ين عفا فالصحان فالرحب
منازل قد عرفتها يفعمـا
حتى بدا فى عذارى الشهـب
ولعلنا نستطيع فى هذا الضوء أن نرى جنور الإشارات التي
وددت فى شعر أبي نواس دالة على عقلية أقرب إلى التركيب منها
إلى البساطة شعت هذا الضوء الغنى الباهر من الإبداع الشعـرى

القوى الخالد . وهي شخصية لم يتل منها إلا هذا الانحراف الطفلي
الذى يأسف له قارئ ديوان أبي نواس ، لكن ذلك لا ينبعى أن
يصرفنا عن هذه الشخصية الفذة التى أراها تتجاوز الأدب العربى
إلى الأدب العالمى ذلك أن عمر الخيم ليس فى الواقع إلا امتداداً
طبعياً لفكرة أبي نواس وفلسفته فى الحياة .

القسم التطبيقي

- ١ - الراشد اليوناني
- ٢ - الراشد العربي
- ٣ - الراشد الفارسي



الرافد اليوناني :

ليس هنا على الإطلاق أن ترد الفلسفة باسمها مع الفهم العميق
للغزها وجوهرها في شعر الشاعر لأن الفلسفة هي أم العلوم ،
والعقل الذي يتأمل الفلسفة ويقف على طبيعتها وينقل قضایاها
الكبرى إلى مجالات أخرى من الحياة محتفظاً بمفهومها ومضيقاً
إليها ليس فقط عقل شاعر يمتلك القدرة على التعبير عما يحس به
من مشاعر أولية كالحب والكراهية واللذة والألم إنما هو أكبر من
ذلك فالذى يبتو لنا منه هو الجزء الذى يبتو طافياً فقط من جبل
الجليد فى الماء .

وكلمة الفلسفة بالذات وردت عند أبي نواس والمتبنى وشوقى ولا
أراها وردت عند غيرهم من شعراء العربية على الإطلاق .

غير أنتى أرى أن أبو نواس كان أكثر الشعراء الثلاثة تمثلاً
واستيعاباً لمعناها وأكثراً لهم وضوها في التعبير عن هذا المعنى
باعتبارها نظرة شاملة للعلم ومن يحصل على هذه النظرة الشاملة
هو الذي يستحق أن يسمى فيلسوفاً .. نعم كان أبو نواس هو أكثر

الشعراء الثلاثة صراحة ووضوحا في التعبير عن هذا المفهوم

العميق للفلسفة في قوله :

فقل من يدعى في العلم فلسفة

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

لا تحظر العفو إن كنت امرأ حَفِرَا

فإن حظرك بالدين إزاء

فالبيت الأول واضح تماماً في معنى شامل الفلسفة لكل جزئيات

العلم ، والبيت التالي يرهان على أن حظر العفو (عن مرتكب

الكبيرة) إزاء بالدين لأن حظر العفو يجعل أفق الدين يبدو ضيقاً لا

رحباً ولا شاملاً وهو المعنى الذي يفهم من قوله في البيت السابق

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء . فوعي هذا الحاظر بالدين عند

الشاعر ليس كاملاً ولا شاملاً لأن الدين أوسع وأشمل من نظرته.

وعلمنا أن بداية الفكر المعتزلي الفلسفى كانت من هذه النقطة

بالذات التى يشيرها أبو نواس فى هذين البيتين وذلك فى الحادثة

الشهيرة لاعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري بعد أن

رأى أن مرتکب الكبيرة هو في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر .
وهذه القضية هي إحدى ثلات قضايا فكرية كبرى شغلت الفكر
العربي المسلم على مصوّل تاريخه وهي قضية مرتکب الكبيرة وقضية
الجبر والاختيار وقضية خلق القرآن . وإذا كانت قضية مرتکب
الكبيرة هي بداية الفكر الفلسفى فإن قضية خلق القرآن كانت إيذانا
بنهايته في صراعه المزير مع أهل السماع والإجماع ولم يدرك أبو
نواس نهاية الفكر الفلسفى وإنما عاش مرحلة ازدهاره في المشرق
العربي .

هكذا يعي عقل أبي نواس المفهوم الجوهرى للفلسفة ويعبر عنه
هذا التعبير الواضح ويطبقه على هذه القضية التي كانت لا تزال
ساخنة في أيامه وإن انتصر فيه لاتجاه عفو الله سبحانه وتعالى عن
 أصحاب الكبائر الذين كان هو نفسه منهم كما هو معلوم .

والملتبى نسب الفلسفة إلى ابن العميد في قوله

عربى لسانه فلسفى رأيه فارسيه أعياده

واوضح أن الرأى الفلسفى هو الذى يصدر عن فكر محظوظ

بالأمور لا تغيب عنه جوانبها وهكذا يكون الشمول كامنا ومفهوما بشكل ضمنى فى هذا الفكر غير أن فكرة الإحاطة والشمول يعرضها المتتبى فى قصيدة أخرى ناسبا إلى ممدوده الإحاطة بعظاماء الفكر اليونانى فى قوله :

من مبلغ الأعراب أنى بعدهم جالست رسطاليس والاسكندراء
ورأيت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرنا
ومعلوم أن أرسطو نموذج للعقلية الفلسفية التى لم تدع علما من
العلوم ولا ظاهرة من ظواهر الكون والحياة إلا تحدث فيها صاحبها
برغم الأخطاء التى وقع فيها . لكنه كان حقا نموذجا لهذه العقلية
المحيطة الشاملة .

صحيح أن المتتبى لم يبعد فى فهمه للفلسفة عن معنى الشمول ولكنه معنى استخلاصناه استخلاصا من أكثر من قصيدة ولم يشر إليه بكل هذا الوضوح والجمال كما أشار أبو نواس فى بيت واحد بل فى شطر واحد عبر فيه باقتدار الأستاذ عن هذا المفهوم وطبقه على هذه القضية الفقهية الساخنة فى أيامه بل امتد بصره ليشمل

الدين بروبيتة .

والآن میا بنا نقارن هذه الرؤیة لأبی نواس برؤیة شوقي فی
الفاسفة فی دعوته إلى الجمع بين العلم والأدب :

إن للعلم جمیعا فلسفه من تغب عنه تفتہ المعرفه

والواضح أنه يقصد هنا أن للعلم في مجموعة فلسفه ، أو أن
العلم باعتباره اسم لجنس العلوم هذه الفاسفة .

وفي الشطر الأيسر يرى أن من غابت عنه هذه الفاسفة فاتته
المعرفة ولكن أية معرفة ؟ ما صفتها وما طبيعتها ؟ إنها بطبيعة
الحال المعرفة المحيطة الشاملة التي لم يبق للإشارة إليها حيز
موسيقى في هذا البيت بينما استغرق أبو نواس شطر بيته السالف
الذكر في بيان الإحاطة والشمول اللذين يمتاز بهما العلم حتى يصل
إلى درجة الفاسفة ، وهكذا ترك أمير الشعر وصف المعرفة المتعلقة
بفلسفه العلم لحدس القارئ الذي يمكن أن يراها المعرفة الحقة أو
العميقة أو الدقيقة أو غيرها بينما كان يمكن أن يحور الشطر
الأيسر من بيته لبيان هذا الأمر الجوهرى البالغ الأهمية الخاص

بفلسفة العلم التي ذكرها في الشطر الأول ليكون البيت على النحو التالي :

إن للعلم جمِيعاً فلسفه
هي في العلم شامل المعرفه

الآ ترى معى أن البيت لم يفقد الكثير من رونقه وبهاته بهذه التحويلة بينما تدارك هذه المعرفة من تركها معلقة لا يعرف القارئ ماذا يراد بها تلك التي تنتج من فلسفة العلم . خاصة وإن شوقيا كان في مجال تبيان الأسس الجوهرية للنجاح في الحياة في قصيده البدعة رسالة الناشئة والتي كان البيان والإيضاح فيها مطلوباً بطبيعة الحال في مثل هذا المجال غير السهل بالذات مجال الفلسفة .. ومع ذلك فإن ما استنبطناه من معنى الفلسفة الشاملة عند المتبنّى وما حورناه من بيت شوقي ليدل دالة صريحة على طبيعة فلسفة العلم كلاماً لا يبلغ في دقتها وشموله وحيويته وبساطتها الأسرة مبلغ بيت أبي نواس :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفه حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء فتحن في هذا البيت وما تلاه نقف بالفعل أمام أستاذ متمكن

غاية التمكّن من الفهم لهذه الذروة العليا من نرى العلم في كل العصور .. ذروة الفلسفة .

وما يؤكد تغلغل الفلسفة في فكر أبي نواس نظرية تولد الأفكار التي تنسب إلى سقراط فقد طبقها هذا الشاعر على الجمال الأنثوي في هذه المقطوعة التي أراها من أنواع فرائد الفن الشعري على الإطلاق :

فتناة المتجرد	وذات خد مورد
الحسن في كل جزء	منها معاد مردد
فبعضه يتناهى	وبعضه يتولد
يكون بالعود احمد	وكما عدت فيه

فتولد الفكر من الفكر تحول إلى تولد الحسن من الحسن، والبيت الأول شطران يقتسمان هذه النظرة الكلية الشاملة في هذا الحيز الموسيقي الصغير إلى الوجه والجسم جميعا وهو ما سنرى له نظائر في مواضع أخرى عند أبي نواس :

فتناة المتجرد وذات خد مورد

وفي البيت التالي ناتى إلى هذا الحسن «الشامل» لكل جزء من هذا الكل الفائق ، وإذا هو حسن متحرك معاد مردد . والعودة هي حركة الأشياء والاحياء في هذا الكون ، وهذا هو أيضاً معنى الارتداد الذي يحقق قافية البيت فهو في حركة دائمة عائدة مرتجدة إلى بدايتها . وتعاقب الكلمتين نفسه يسهم فنياً في الابحاث بالتكرار الذي هو طبيعة الحركة الكونية الشاملة لكل شيء وكل حي . وفي البيت التالي ناتى إلى هذا الحسن الذي يتناهى بعضه بينما يتولد بعضه الآخر ، فمن هذا الكل الذي يشمل الكيان الانثوي الجميل جزءاً جزعاً في البيت السابق إلى هذا الكل الذي يشمل الحسن نفسه ، من بعضه المتناهى وبعضه المتولد ، هنا يتجسد الحسن نفسه ويكون له كيانه الذي يتحرك هذه الحركة المستمرة بين التناهى والتعدد أو التولد . وهذا التجسيد للمجرد هو أصل هام من أصول الفن الشعري لأنه عودة إلى أصل التفكير نفسه الذي يبدأ بالمجسد ويظل يرتفع حتى يصل إلى المفاهيم المجردة فهي عودة إلى البداية . وإلى طفولة الفكر البشري التي لا تزال تعيش داخلنا مهماً أمعن الفك في التجريد .

الحسن إذن كيان حى قائم بذاته له حركته التى تشمله بين
التناهى والتولد، وكأنها حركة الحياة نفسها، تتناهى الأفراد فى
الكيان البشرى وتولد أفراد أخرى لتحقق الاستمرار النوعى لهذا
الكيان وعند سقراط أن الفكرة تتولد من الفكرة كما يتولد الكائن
الحى من الكائن الحى ، هذه الفكرة ضمنها أبو نواس شطره
الأيسر في هذا البيت بعد أن نقلها من عالم الفكر إلى عالم الجمال
لكته اتعطف بها نحو فكرة سابقة لها في الشطر الآيمن هي فكرة
التناهى محدثاً هذا الترابط الدائم بين الميلاد والموت وهما النقطان
المستمران للحياة النوعية ، وهو يبلغ ذروة الإبداع حقاً في هذا
«التناهى» الذى يرسم به صورة دققة موحية بهذا الذهاب بنعومة
وانسيابية ولطف بالغ لا تحس معه بصدمة المفاجأة ولا بحدة
الانقطاع . إن هذا البعض لا ينتهى ولا ينقطع فجأة ليحل محله
بعض آخر بل هو يذهب ذهاباً ناعماً سلساً هادئاً كأنهأخذ التوم
الهادئ للعيون ، لقد كان يكفى أبو نواس فخراً أنه نقل ببراعة فكرة
التولد من الفكر إلى الحسن ولكن زاد على ذلك تلك النظرة العالية
المستشرفة للحياة بأسرها بين بعض يتناهى وبعض يتولد محققاً

دورة بين شطري البيت هي نفسها دورة الحياة بأسرها وبذلك حقق
إنجازين رئيسيين ارتفعا به في هذا البيت بحيزه الموسيقي الصغير
إلى ذروة عليا من ذرى الفلسفة كاشفاً لنا عبر هذا التحليل عن
عقلية تشع إشعاعاً غنياً عميقاً في لحظات الإبداع والإلهام هي تتاج
تحصيل طويل في هذا العصر الذي عاشه أبو نواس والذي ازدهرت
فيه الفلسفة محضنة الفكر العلمي في تلك العصور .

ولا شك أننا نشعر بالبون الشاسع بين دلالة هذا الشعر وبين
دلالته في العصر الجاهلي من حيث الغنى والدقة والعمق، فهو يمتلك
في هذا العصر فكراً لم يخطر للجاهليين على بال ، وإذا كان فكر
الجاهليين وعلمهم مكافئاً لشعرهم فإن الفكر في العصر العباسي
قد أثرى بما رفده الثقافة اليونانية بوجه خاص من فلسفة ومنطق
وعلم وإن كانت قوة الشعر الجاهلي وعنفوانه قد استمدوا من اتصاله
القوى بطبع الطبيعة التي لم يكن بينه وبينها حواجز فكانت المعرفة
الدقيرة بنفسية الحيوان وأحوال البيئة المحيطة وأثر قسوة الرحيل
ال دائم على التفوس مما بعث الحرارة في هذا الشعر ، وهكذا ننتقل

من تكافئ الشعر والعلم في العصر الجاهلي إلى هذا الفيض من
العلم الذي أخضر منه عود الشعر ، ونمت عليه التمار والأزهار
البيعة الفتنة التي نراها ونشم رائحتها في مثل هذه المقطوعة
البيعة النادرة من شعر أبي نواس .

وهي بنا تتمل قول أبي نواس :

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

هل يريد الشاعر في الشطر الأول العلاقة بين الخمر وأسمها أم
العلاقة بين الخمر وذاتها فيما يعرف بالmbدا الأول من مباديء المتنق
الأسطري وهو مبدأ الهوية القائل بأن الشيء هو الشيء ، أو بلغة
الدياضيين أن أ هو أ وهذا المبدأ هو الركيزة الأولى للمنتق ؟ من
الوهلة الأولى يبدو لنا أن الشاعر يريد أن تسمى الخمر باسمها ولا
يكتفي منها باسم آخر ، وأن يشربها جهرا لا سرا، ولكن تسمية
الخمر باسمها الحقيقي مثل أبي نواس لا يمكن أن يكون المعنى
العميق لهذا الشطر فهو يريد من الساقى الذى يصب له الخمر أن

يقول له إنها هي الخمر وليس شيئاً آخر ! .

ثم إن و بعد «الهوى» في نص هذا الشطر يؤكد أن هذا الشاعر الذي قلب حديثه عن الخمر على كل وجه ينقل مبدأ الهوية الأرسطى إلى عالم الخمر ، كما نقل فيما سبق ببراعة كبيرة فكرة التولد السقراطية من عالم الفكر إلى عالم الحسن ، فالخمر التي يشربها الآن هي الخمر وليس شيئاً آخر وهل يقول مبدأ الهوية الأرسطى إلا هذا ؟ إن الشيء المعين الذي نراه الآن هو الشيء نفسه وليس شيئاً غيره ؟ ليس هناك أبداً قولنا أ = أ إلا أن أ هي أ وليس شيئاً غير أ لكن هذا المبدأ الذي يبيو لنا للوهلة الأولى بسيطاً ساذجاً ، هذا المبدأ هو أعمق وأعظم مبادئ التفكير على الاطلاق لأننا إذا اكتشفنا أن أ هي ب فمعنى ذلك أننا نزيل عن أنفسنا جهلاً سابقاً بهذا التكافؤ بين شيئاً كننا نسمى أحدهما أو الآخر ب مع أنهما في الحقيقة شيء واحد، وهذا الشيء الواحد كان يجب أن نطلق عليه اسمما واحداً، لكن جهلنا السابق هو الذي جعلنا نطلق اسمين مختلفين على صورتين له ، ونحن الآن بمقتضى هذه المعرفة الجديدة

نستطيع ان نقول أ هي أ لأن ب ليست في الحقيقة إلا أ.

وهذا الشاعر الذى يريد أن يقول له ساقيه عن الخمر التى يصبها
له إنها هي الخمر ليس مجرد شاعر وحسب وإنما هو فيلسوف قال
عن نفسه يوما :

فكيف ترون زجرى واعتيافى ألسنت من الفلاسفة الكبار ؟

ونحن نرى الدعوة إلى الجمهور ما أمكن بدلا من السر والكشف
بدلا من الستر فى سقرا الخمر ينبعطف فى الشطر الأيسر نحو
الشطر الأيمن من حيث يوران كل منها حول محور واحد هو هذه
السقرا ، لكن هذا ليس كل شيء ، فالخمر لا تختفى حقيقتها أمام
الشاعر وراء أسماء أخرى يكتنى بها عنها ، الخمر هي الخمر ،
وشربها لا يختفى بدوره وراء حجاب عن الناس ، وهكذا يكون
الكشف عن حقيقة الذات فى مبدأ الهوية فى الشطر الأيمن منعطفا
نحو الكشف عن حقيقة الفعل (الشرب) فى الشطر الأيسر ،
ويتحرك تيار الدلالة حركته الدائنية عبر هذا الكشف عن الفعل
والكشف عن الذات المتعلقة بهذا الفعل (الخمر وشربها) فى

الشطرين ، ولعلك توافقني أنتا بهذا نقف أمام عقلية عالم حتى في
هذا المجال مجال الخمر ! تلك العقلية التي لا يستهويها شيء مثل
الحقيقة والوضوح ، ولهذا يرتبط دائمًا سعي العالم إلى الحقيقة في
أعلى مراتبها متمثلة في مبدأ الهوية بالذات ، يرتبط هذا الكشف
بسعيه إلى كشفها وأعلنها للناس !

وهيأ بنا تتأمل هذا اللون الفلسفى الذى يوحد بين المتضادات
عند أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداونى بالتي كانت هي الداء
فالفلسفة فى نظرتها الشمولية الكلية للوجود تسعى إلى توحيد
الأشياء حتى ما يبدو منها متضاداً أو متناقضًا ، وهذا التوحيد هو
أيضاً غاية العلم فى أعلى درجاته وفي أهم منجزاته ، وليس أدل
على ذلك من المصل الذى هو دواء من نفس الداء» وهذه الفكرة التى
تعد من إنجازات الطب الحديث هى التى يتضمنها الشطر الأيسر
من هذا البيت ، فالخمر عند الشاعر هي الداء وهي الدواء أيضاً ،
إنها النقيضان معاً ، وكثيراً ما يذكر الشاعر أن الخمر تتفى ألم

الخمار فهى التى تجعل المخمور - كما يذكر كثيرا فى خمرياته -
هامد الجسم وهى نفسها التى تبعث فيه الحركة والنشاط إذا عاود
شربها .. فهى الداء وهى الدواء ، وهذا المعنى فى الشطر الأيسر
من البيت يتحرك منسجما مع المعنى فى الشطر الأيمن السابق له
حيث اللوم هو الإغراء أو الشيء هو نفسه ضده ، لأن اللوم عند
الشاعر يحدث نفس أثر الإغراء على شرب الخمر وهو معنى مهد له
كثيرا فى خمرياته حين يذكر أن عذل العذال يدفعه إلى المزيد من
شرب الخمر ، هكذا ينطعف توحيد الصدرين من الدواء والدواء فى
الشطر الأيسر نحو توحيد الصدرين من اللوم والإغراء فى الشطر
الأيمن داخل إطار النزعة الفاسدية المتفغلة حقا فى فكر أبي نواس .

وهذا اللون الفلسفى يظهر كذلك فى قوله :

ووجدت طبائع الانسـاـنـاـ نـأـرـبـعـةـ هـىـ الـأـصـلـ
فـأـرـبـعـةـ لـأـرـبـعـةـ لـكـلـ طـبـيـعـةـ رـطـلـ
وأـبـوـ نـوـاسـ لـأـيـأـىـ بـالـفـكـرـةـ الـفـلـسـفـيـ وـكـفـىـ ..ـ أـنـهـ يـضـيفـ لـهـ أـوـ
يـعلـقـ عـلـيـهـاـ ..ـ كـمـاـ يـفـعـلـ هـنـاـ ..ـ هـذـاـ التـعـلـيقـ الـذـىـ يـبـيـوـ تـعـلـيقـاـ سـاخـراـ

بينما يورد أبو العلاء المعرى نفس هذه الفكرة المعروفة لأرسطو
بقوله :

الناس من أربعة مجتمعه ماء ونار وتراب وهوا
وإضافة إلى الفكرة الفلسفية هو شأن أبي نواس فيما قدمنا له
من الأفكار الفلسفية التي دارت في شعره فقد جعل التولد في
مقابل التناهى في قوله :

فبعضه يتناهى وبعضاً يتولد
فلم يثبت الفكرة الفلسفية كما أثبتتها أبو العلاء بشكل مجرد ،
 وإنما نقلها من مجال إلى مجال آخر .. من الفكر إلى الحسن ثم
جعلها في تقابل دائم مع التناهى أو الفتاء ، وهما نقىض الحياة ..
وهذا الذي فعله أبو نواس له قيمته الكبرى في الدلالة على ما تمنع
به فكره الخاص من غنى وخصوصية وقدرة على تمثل الأفكار ،
وإدراك العلاقات بينها وقد رأينا ذلك يردف مبدأ الهوية الفلسفى
الذى هو جوهر العلم بمبدأ الكشف والإظهار الذى هو غاية العلم
فى قوله :

ألا فاسقني خمرا وقل لى هي الخمر

ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجوهر

فهو لم يكتف بنقل نظرية التوالي السقراطية من مجال آخر ولا
مبدأ الهوية الأرسطي من مجال آخر بل يردفه بعدها آخر يقابل به
بين الجوهر والغاية للعلم في أعمق وأهم مظاهره .

وهأنت ترى معي أنه كلما أعدنا النظر في فكر الشاعر كلما
أبصرنا المزيد والمزيد من الأعماق والجوانب فهو صاحب فكر مركب
بحق ، ولعل فكره هذا أشبه بالوجه الحسن الذي وصفه هذا
الوصف الفلسفى البارع العميق :

يزيدك وجه حسنا إذا ما زدته نظرا

أنك تتأمل خمريات أبي نواس فتكتشف لك عن موقف فلسفى حقا
من الحياة هو موقف التمتع باللذة الحاضرة وهذا موقف الإبيقوريين
المعروف ، ومن يتأمل شعر الخيام يجده امتدادا لفكرة أبي نواس
الفلسفى ومذهبة فى الحياة . وإذا كان الخيام قد غدا شاعرا عالميا
فإن أبي النواس كذلك شاعر عالمى غير أنه هبط بشعره ذلك الجانب

السيء الشاذ في الجنس .

وهكذا نرى أن الفلسفة لم تكن فقط وعيًا بمفهومها الشامل عند أبي نواس بل لقد تناقضت أفكارها في فنه تلك الأفكار التي تمثلها تمثلاً جيداً مكتنها من نقلها من مجال لآخر والاضافة إليها، وحياته نفسها كانت مذهبًا فلسفياً بحقه ، وإن كانت رداً على فشله المأساوي في حب جنان تلك الجارية التي لم يحب غيرها من النساء في حقيقة الأم.

فإذا تركنا لون الفلسفة في تركيب الإشعاع الفكري لأبي نواس كشف لنا شعره عن ألوان أخرى يتركب منها هذا الفكر الغني الخصب منها اطلاع لا ينبع به على علم الفلك في أيامه وقد تجلى ذلك في إشارته البارعة إلى الموضع الظاهري للشمس في قوله :

لما رأيت محل الشمس في الأفق وضوئها شامل للدور والطرق
صيّرتها التي أحببتها مثلاً إذا لا ينالهما شيء سوى الحق
ولو نظم هذا الشعر غير أبي نواس من لا يدخل هذا اللون من
الاطلاع في تركيب فكره لما خطر له «محل» الشمس أو موضعها

الظاهري في الأفق على بال وفقد دلالة البيت أكبر مصدر للقيمة فيها ، لأن هذه الكلمة وحدها تشع ضوئاً بالغ الدقة عميق الإيحاء لارتفاعها على خلفية من الاطلاع الواسع، مما يدل بوضوح على أن هذه الكلمة لم تأت عفواً إلى الشاعر في هذا الموضع قوله في تصيدة أخرى :

**ألا ترى الشمس حلت العجلة
وقام وزن الزمان فاعتدا**

المعروف أن برج الحمل هو أحد الأبراج الشمسيّة الإثنى عشر وهي الأبراج التي كشفت عنها حضارة مصر القديمة وفي الشطر الأيمن من البيت نرى الاشارة الاصطلاحية إلى «حلول» الشمس في هذا البرج تلك التي تتصل في البيت الذي عرضنا له سابقاً «بمحل» الشمس وإن كان هذا الأخير يتعلق بالحركة اليومية الظاهرة للشمس بينما يتعلق البيت الذي نعرض له هنا بحركتها السنوية ، فالشطر الأيمن يتعلق كلّه بحركة الشمس في السماء وحجبها لمجموعة نجمية إثنتي مجموعات نجمية أو برج إثنتي برج بينما الشطر الأيسر يختص بما يجري على الأرض على أساس حركة

المجموعة الشمسية كلها في السماء ، ذلك أن فصل الرياح يحل هنا
ويستوى طول الليل والنهار ويعتدل الجو بين الحر والبرد، وهكذا
ينتعطف ما يحدث على الأرض في الشطر الأيسر من البيت نحو ما
يحدث في السماء في الشطر الأيمن منه انعطاف النتيجة على
السبب، وهذا هو سر الدورة الدلالية السلسلة التامة بين الشطرين ،
وما يلفت النظر في هذا البيت أن الشطر الأيسر يحمل مفهوم
الزمان والشطر الأيمن يحمل مفهوم الحركة، فالزمان ليس شيئاً أكثر
من حركة المكان . وهكذا يدخل الزمان في الشطر الأيسر باعتباره
نتيجة لحركة المكان في الشطر الأيمن ، وقد كشفت رسالة ابن
القارح لأبي العلاء المعري أن المرحلة الوسطى من الحضارة كانت
تعرفحقيقة العلاقة بين الزمان والمكان وهي أن الزمان هو حركة
المكان ، وبيت أبي نواس صريح في الدلالة على هذه المعرفة ، ففيما
وذهب الزمان واعتداه هو نتيجة مباشرة لحركة الأجرام الفلكية، ولكن
ندرك الأهمية الكبرى لفكرة علاقة الزمان بالمكان فإننا نشير إلى أن
أينشتين في العصر الحديث قد تبنى في نظريته فكرة منكوفسكي
بأن الزمان هو البعد الرابع للمكان .

والشاعر موفق في التعبير باعتدال وزن أو ميزان الزمان عن هذا التساوى بين طولى الليل والنهار فى الربيع ، وهذا الاعتدال بين الحر والبرد مع حلول الشمس فى برج الحمل ، و اختياره لصورة الميزان فى التعبير عن المجرد بالجسد هنا اختيار يأتى جماله من دقته فى دلالة الميزان على التعادل .

نحن فى هذا البيت إذن مع جناحى العلم والأدب معا .. العلم فى أرقى ذروة له ممثلا فى الفلسفة ، والأدب فى أعمق مفاهيمه باعتباره رحلة من المجرد إلى الجسد فى إطار فن التشبيه ودرجاته الأعلى ، ونحن فى هذا البيت مع معرفة علمية راقية لا بالنسبة لعصرها بل بالنسبة لعصور الحضارة جمیعا حيث يتطلع العلم للسماء مستكشفا لظواهرها وحقائقها فى علاقتها بالأرض .

لقد ذكرنا الإشارتين الفلكيتين الدقيقتين فى شعر أبي نواس هنا فى الجانب اليونانى الذى استغرقت الفلسفة معظمها لأن الفلسفة فى تلك العصور كانت تحتوى مختلف العلوم ، والمعلومات الفلكية الدقيقة التى خلفتها مصر القديمة وصلت إلى الحضارة العربية عن

طريق اليونانيين الذين كانوا تلاميذ مخلصين للكهنة العلماء في مصر والذين كانوا يفخرون بأنهم يعتبرونهم أولادا لهم كوهى أيضا المعلومات التي وصلت إلى أوروبا عن طريقهم في فترة مبكرة جدا من نهضتها، وقد بني تيخو براهي قياساته الطويلة الدقيقة لحركة الكواكب على أساس النظرية المصرية القديمة القائلة بدوران الكواكب حول الشمس، ولو لا ذلك ما نجحت هذه القياسات، واعترف تلميذه العظيم كلبر وهو يعلن القانون الثالث بأنه سرق التماشيل الذهبية المصرية القديمة، وجاء نيوتن الذي استخرج قانونه في الجاذبية من قانون كلبر الثالث ليعتبر أن عمله هذا داخل في نطاق الفلسفة، أو في نطاق فلسفة الطبيعة كما سمي كتابه الحال.

فاحتضان الفلسفة للعلوم ظل قائما حتى القرن السابع عشر الميلادي متدا من المرحلة الوسطى للحضارة البشرية، وهذه المرحلة الوسطى عرفت المعلومات ولم تعرف القياسات الرياضية التي قامت بها الحضارة المصرية القديمة، وأيضا الحضارة الأوروبية وبهذا فإن إشارات أبي نواس كشاعر إلى الموضع الظاهري للشمس

في حركتها اليومية وإلى حركتها السنوية بين المجموعات النجمية أو
الأبراج هي إشارات لها قيمتها العالية حقاً بالنسبة للعلم الفلكي في
العصور الوسطى.

وشاعر كهذا يصور بكل هذه الدقة حركتي الشمس ليس من الغريب أن نراه يتناول قضية الحركة والسكون نفسها في مختلف موضوعات شعره وهي قضية شغلت الفلسفة اليونانية بدرجة كبيرة وكما «تحرك» بقضايا هذه الفلسفة الكبرى من مجالاتها الخاصة إلى الشعر بغزله وخربياته نراه يشير إلى قضية الحركة والسكون في ثلاثة مواضع إذ يقول في مدحه لهارون الرشيد :

للجود من كلتا يديه محرك لا يستطيع بلوغه الإسكان

وينقل نفس القضية إلى زهدياته بقوله في الجنين :

يسوقه من هواء إلى قرار مكين

حتى بدت حرکات مخلوقة من سكون

ويقول في موضع ثالث :

بأنية مخروطة من زبرجد تغير كسرى خرطها ليصونها

بكف تقاد الكأس تدمي بنانها إذا أزعج التحريرك منها سكونها

ومن يتأمل ما ثار حول قضية الحركة والسكن في الفلسفة اليونانية التي كان تيارها يتدفق من خلال حركة الترجمة الواسعة

في هذه الأيام يدرك أن هذا الشاعر الذاهنة لم يكن بعيداً عن التأثر

بهذه القضية الكبرى التي حيرت العقل البشري ولا تزال تحيره

حتى الآن حيث اكتفى العلم مع بدايات النهضة الأوروبية الحديثة

بالوصف الرياضي للحركة نفسها في مثل قانون العجلة لجاليليو،

والقانون الثالث للكابر، وقانون ماكسويل لحركة الضوء أو الموجات

الكهرومغناطيسية ، وتوقف تماماً ذلك الجدل الواسع الذي ثار حول

طبيعة الحركة وعلاقتها بالسكن في الحلقة اليونانية من تاريخ

الحضارة .. وكان أرسطو قد تحدث عن المحرك الأول (الله تعالى) ،

فالحركة لا تأتي ولا تبدأ إلا من سكون ، ونال زينو الإيلي شهرته

في الفلسفة اليونانية بما أثاره من قضايا حول علاقة الحركة

بالسكن في السهم المنطلق من القوس وفي السباق بين البطل

اليونانى أخيل وبين السلاحفاة فلكى يقطع المتحرك مسافة ما يجب أن يقطع أو لا تصف هذه المسافة ولكن يقطع هذا النصف يجب أن يقطع نصفه قبل ذلك وهكذا بلا نهاية . وتوصل زينو من خلال مثل هذه المتناقضية فى العلاقة بين الفضاء والزمان إلى أن السهم لا يتحرك ، وأخيل لا يلحق بالسلاحفاة ! فالعلاقة بين الحركة والسكن كانت موضوعاً مثيراً لجدل واسع في المرحلة الوسطى من الحضارة حيث عاش شاعرنا الذى لم تقب هذه القضية عن وعيه كما لم تقب كبرى القضايا في الفلسفة فيما مر بنا . وفي هذا الموضوع لا يمر مروراً عابراً بهذه الحركة المخلوقة من سكون ولا هذا المحرك الدائم الذى لا يبلغه السكون ولا هذا التحرير «المزعج» للسكن ، وهو هو يشمل في هذه الآيات المتفرقة الحركة والمحرك وعملية التحرير في علاقة كل من هذه المفاهيم بالسكن . وهو فيها يشير إلى الظاهرة (الحركة) وسبب الظاهرة (المحرك) وبدء الظاهرة (التحرير) أي نفس القضايا التي شغلت الفلسفة في المرحلة الوسطى ، والتي تحتها الحضارة الحديثة جانيا وانشغلت بالوصف العملي الرياضي لحركات معينة في الكون .

وهكذا ترانا أمام شاعر يمتلك فكراً ذا نهم شديد للمعرفة
بمختلف جوانبها ولهذا فنحن حين نحلل نجد هذه العناصر المختلفة
 تكون هذا الفكر الغنى الذي يقف وراء هذه الشخصية الفذة بحق
 فى تاريخ الشعر العربى ، والذى يتناول أى غرض من أغراض
 الشعر فتشعر بهذا الغنى وهذه الأعمق والأبعاد التى لا ندرك
 طبيعتها إلا بالتحليل الدقيق لطبيعة تركيب هذا الفكر .

ومن مفهوم الفلسفة الشامل إلى فكرة التولد عند سقراط، إلى مبدأ
 الهوية عند أرسطو، إلى الفلكل إلى الأخلاط الأربع، إلى الحركة
 والسكن، نرى لوناً آخر في تركيب الفكر النواصى هو العلم بالتحل
 فى هذه الأبيات التي تكشف عن اطلاع واسع لا يستهان به وخاصة
 فى أيامه :

ترعى أزاهير غيطان وأودية وتشرب الصفو من غدر وإحساء
 فطس الأنوف مقاريف مشمرة خوص العيون بريئات من الداء
 من مقرب عشراء ذات زمرة وعائذ متبع منها وعذراء
 تقدو وترجع ليلاً عن مساربها إلى ملوك نوى عز وأحباء

كل بمعقله يمضى حكمته فى حزبه بجميل القول والراء
لم يرع بالسهل أنواع الشمار ولا ما أينع الزهر من قطر وأنداء
زاللت وزلن بطاعات الجماع فما ينبن فى حذر منها وإرجاء
حتى إذا اصطك من بينانها قرص أروينها عسلا من بعد إصداء
فأن من شهدنا وقت الشيار فلم تثبت بأن شيرت فى يوم أضواء
فهذا الذى نراه ليس فكر شاعر يمر بالأشياء والأحياء مرورا عابرا،
ولإنما هو فكر شغوف بالمعرفة فى شتى جوانبها ، إنه فكر فلسفى
محيط شامل .. فهو يصف أحوال نحل العسل وصفا دقيقا محيطا
بتناول أشكالها المميزة وأوصواتها وعاداتها فى التناسل وتكونتها
الاجتماعى بنظامه الملكى حيث لا تقوم الملكات بما يقوم به غيرها
من امتصاص رحيق الزهور ، وما يكون من أمر موت الذكر
والمملكات فيما يسميه «بطاعات الجماع» وما يكون بعد ذلك من ملء
الأقران بالعسل حتى يحين أوان الشيار أو جمع العسل منها ،

الراشد العربي :

وهذا الفكر الفلسفى الشامل لأبى نواس نلمح فيه خطوط
وعناصر الثقافة العربية المسلمة من الحديث والفقه واستنباط
الأحكام وعلم الكلام والمنهج التجربى للعلم الذى أخذت به الثقافة
العربية وعبر عنه الجاحظ المفكر الشامل الذى كان أحد ثمرات فترة
ازدهار الحلة العربية فى تاريخ الحضارة .

ونحن نرى بوضوح آثار تلك الأيام التى سعى فيها أبو نواس
للعلم فى المربدين والمسجد الجامع بالبصرة ومخالطته لرجال
الحديث والفقه وأخذه عنهم فى إشاراته التى أسلفناها إلى مراكز
العلم فى مثل قوله :

قل للملين أما تروى الحديث وما خالفت فيه وما جاءت به الصحف
إن القلوب لأجناد مجنة لله فى الأرض بالأهواء تختلف
فما تعارف منها فهو مختلف وما تناكر منها فهو مختلف
وكم نقل أبو نواس قضايا الفلسفة والمنطق الكبرى إلى مجالات
أخرى فى فن الشعر فها هو ينقل الحديث الشريف بنصه إلى مجال

الحب ، وهو هو يناقش من يحب مناقشة الخبر بالحديث وروايته
والمخالفة فيه ، وبما جاءت به الصحف ، وهي كما نرى عبارات عقل
ولسان مرنا على السماع الكثير والدرس الجاد لهذه المصطلحات
ولولا لما طاوعت الشاعر هذه المطاوعة لما تحولت إلى هذا الفكر
المتفوّم الذي نسميه الشعر ، وأكثر من ذلك نجد نص الحديث مثبّتاً
في البيتين التاليين وخاصة في البيت الثالث الذي يستغل فيه
الشاعر هذا التقابل الجميل بين التألف والتناقض ، وبين الاختلاف
والاختلاف .. ومع هذا فمقصد الشاعر لا يبيّن لي واضحًا تماماً في
هذه الأبيات الثلاثة فهو يقول لمن يحب إِنَّه يخالف ما جاء به حديث
الرسول عليه السلام من أَنَّ القلوب أَجْنَادٌ مجنة ما تعارف منها
أَنْتَلَفُ وَمَا تَنَاكِرُ مِنْهَا اخْتَلَفُ ، فَمَا الَّذِي يُرِيدُه إِنَّه ؟ إنَّه
التألف والتناقض بين القلوب مسألة إلهية لا دخل فيها لأصحابها
فَمَا الَّذِي يَنْكِرُ الشاعر مِنْ يَحْبُّ إِنَّه يُخَالِفُ هَذَا الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ ؟
هَلْ يُرِيدُ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ لَهْ إِرَادَةٌ فِيمَا لَا إِرَادَةٌ فِيهِ لِإِنْسَانٍ مِنْ
انعطاف القلوب نحو بعضها أو انحرافها عنها ؟ نعم القصد هنا
غَيْرُ وَاضْحَى بِلِلْعَلَهِ غَيْرُ سَدِيدٍ لَأَنَّه يَطْلُبُ مِنْ يَحْبُّ مَا لَا يُسْتَطِيعُه

فلا ينصلح الحديث نفسه ؟

ومع هذا فالآيات الثلاثة قوية الدلالة على تلك الأيام التي قضاها
في درسه للحديث . ثم تأمل معى كيف يتحرك الشاعر بالفقه وعالمه
إلى عالم الحب والمحبين بكل ما يملكه من خفة الروح والظل :

أتذن لى - فديتك - بالسلام عليك ، وفي القليل من الكلام
أتغدو للحديث: إلى فقيه وتنظر في الحلال وفي الحرام
فهل حدثت عن قتلى بشيء إلى الفقهاء يا بدر التمام؟
فهذا «النظر» في الحلال والحرام ، وهذا الحديث بشيء من
الفقهاء تعبيرات لا تصدر إلا عن رجل درس الفقه وأطال الدرس فيه
وهو ما نعرف جنوره من مواطبة الشاعر في شبابه على حلقات
المحدين والفقهاء في المسجد الجامع وأخذه عنهم ومناقشته لهم ..
وهذا الدرس لم يذهب هباء وإنما هو يسعف الشاعر في حديثه
عن محبوبته جنان التي كانت لها كما هو معلوم دراية بالحديث
والفقه والأدب شأنها في ذلك شأن الجواري المعلمات المتأدبات في
عصرها ومنهن من كانت تقرأ في كتاب أقليدس الذي صنف في

نظريات الهندسة وهو المتاخر لكتاب الخوارزمي الذى صنف فيه
معادلات الجبر القديم ، نعم كانت الجوارى فى هذا العصر على هذا
القدر من الاهتمام بالأدب والعلم فى شتى جوانبه من الثقافة
اليونانية والعربية وفى هذه الفترة الزاهرة من ازدهار الحضارة
العربية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وما هو أبو
نواس يدعو محبوبته إلى ان تنظر مع الفقهاء الذين تحدثهم فى أمر
قتلها له بجمالها الفتان وصدتها الدائم عنه.

وينقل ابو نواس «استنباط» الأحكام الفقهية إلى مجال سورة
الخمر في قوله :

صرف إذا استنبطت سورتها أهدت إلى معقولك الفرحا
ولعلك توافقنى على أن استنباط هذه السورة هو تعبير لا يصدر
إلا عن عقل من بنى هذا المصطلح الفقهي الدقيق حتى ينقله بهذه
الصورة إلى مجال الخمر ، فالخمر عند هذا الشاعر مجال لتطبيق
أهم مبادئ المنطق (ميدا الهوية) كما مر بنا ولأكثر الأعمال الفقهية
تطلب الإحاطة بجوانب الفقه ولذكاء ممثلا في الاستنباط وهو

استنباط لن يؤدي إلى نتيجة عقلية ، بل إلى نتيجة شعورية هي هذا الفرح الذي تهديه سورة الخمر إلى العقل . وأبو نواس في اختيار كلمة الفرح فيلسوف كبير بحق كما وصف نفسه لأنه بذلك يضع المشاعر والأفكار في مرتبة واحدة بحيث يمكن أن يحل الشعور محل الفكر وهما الجانبان الأساسيان في تكوين الإنسان .. فالحكم العقلي الذي يأتي نتيجة عملية الاستنباط هو الفرح !

إن هذا المزج بين الفكر والشعور والنظرة الشاملة القاردة على إحلال هذا مكان ذاك ليست شيئاً هيناً على الإطلاق ، ولعلنا لا نصادفها أبداً بهذا الأسلوب وهذه الدقة في التعبير ، وهذا الجمال الآسر الخلاب عند غير أبي نواس على طول تاريخ الشعر العربي !

ثم تأمل معى نقد الشاعر لمنهج السماع والاتباع في العلم في البيتين التاليين مواصلاً حملته الشهيرة على استمرار المقدمة الطالية في بناء القصيدة العربية :

نصف الطلول على السماع بها أفنوا العيان كانت في الحكم
وإذا وصفت الشيء متبعاً لم تخل من زلل ومن وهم

أهناك شك لدينا في أننا أمام عالم ولستنا أمام شاعر وكفى ؟
أليس هذا هو أسلوب الأستاذ المعلم المتمكن من العلم بل من منهج
العلم ؟ وأبو نواس هنا يعرض هذه القضية النقدية على أهم منهج
علمي شغل الحضارة حتى في مرحلتها الحديثة في أوروبا ذلك هو
منهج التجربة المباشرة .. وفي هذا القرن الثالث الراهن نرى
الجاحظ بفكرة الفلسفى الشامل ينقد المعلم الأول فى قوله إن
الضفادع لا تفق تحت الماء على أساس أن ذلك قول لا يسنده العيان
فذلك عسر على حد قول الجاحظ ، وهو أبو نواس ابن هذا
العصر الذى تفتح عقله فيه على مختلف المعارف من الثقافات
المتعددة التى صبت روافدها فى اللغة والحياة العربية يقارن هذه
المقارنة المنطقية بين صاحب السماع وصاحب العيان للشىء فى
البيت الأول ... إنها مقارنة يحملها هذا السؤال الذى لا يحتمل إلا
رد واحدا هو ألا يكون صاحب العيان مساويا لصاحب السماع فى
الحكم على الشىء (فما رأى كمن سمعا) ، ولا يفوتنا أن نتأمل هذا
التركيب الحضرى اللطيف فى الشق الأيسر ذلك الذى يحمل هذا
السؤال : أفنى العيان كانت فى الحكم ؟

إنه يقارن فيه بين صاحب العيان أو مالكه وبين «أنت» التي ينطوف بها نحو الشق الأيمن حيث واصف الطول على السماع ، وهكذا ترانا بين مالك لهذا الشيء الواضح المباشر وهو العيان وبين هذا الذي يصف الشيء على السماع به ، هذا الذي لا يملك شيئاً وإنما هو يفعل ما يفعل على السماع ، وحرف الجر هنا يوحى بعدم التمكن والثبات في مقابل الصاحب والمالك للعيان ، وما هو الشاعر المتمكن من أداة فته يطوعها ، وهو يجريها على نغم الشعر وحركته الدائرية المحسوبة للتعبير الدقيق بل الفنى في إيحائه بالمعنى الذي ي يريد ويكتب به هذه المقارنة المزيد من العمق والدقة والقدرة على الإقناع ، وعلى أساس هذه المقارنة يبني بيته التالي الحامل لهذا الحكم العام وهو أن واصف الشيء باعتباره مصدراً ثانوياً أو تالياً أو تابعاً لابد واقع في الخطأ والوهم الذين لا يقع فيهما المصدر الأصيل المباشر للخبر .

إن هذين البيتين لم يحملا أبداً قضية بدائية بسيطة كما يبدو للوهلة الأولى وإنما فهل كان يمكن أن يكون بين اتباع الآراء السابقة

وبين أصحاب الدعوة إلى التجربة المباشرة للأشياء كل هذا الصراع
الممرين في بدايات النهضة الأوروبية الذي راح ضحيته جونو برونو
وغيره كثيرون من أصرروا على أن يحصلوا على المعرفة بأنفسهم
مباشرة ولا يعتمدوا على ما وصل إليهم من أرسسطو أو المعلم الأول
في شأن موضع الأرض بالنسبة للكون .. إنها قضية كاد جاليليو
نفسه يذهب ضحية لها لو لا كبر سنه ورجوعه أمام المحكمة التي
نصبت له حيث أعلن تراجعه عن رأيه واحترازه لأراء السابقين ..
نعم القضية التي يعرض لها هذا الشاعر بكل هذه البساطة التي
تبدي في البيتين ليست قضية يسيرة في تاريخ الحضارة البشرية ،
ويانحاسامها فقط حدث التقدم الذي تعيشه حضارتنا الراهنة !

الرافد الفارسي :

ولم تكن الثقافة اليونانية وحدها يفسرتها ومفهومها ومنظماها
وقضاياها وعلمها هي النبع الوحيد الذي استقى منه الشاعر وكان
إشاعره الفكري بخطوطه المتعددة التي لاحظناها في شعره إلى جانب
الثقافة العربية الإسلامية بعناصرها من الحديث والفقه وعلم الكلام
هي كل شيء ، وإنما هناك أيضاً الثقافة الفارسية ، ولا ننسى أننا
مع شاعر فارسي الأصل ، وهذه الثقافة الفارسية تجلت بوجهه
خاص في الفن القصصي بأبرز خصائصه من تصوير حوار ليالي
الأنس والطرب وال فهو والسرور وكل ما تضمنه من سحر الطبيعة ،
وجمال الرسم والنقوش في كفوس الشراب ، ومن غناء وعزف على
آلات الطرف ، ولا عجب في ذلك فقصصه الليالي وسحرها مماثلة في
ألف ليلة وليلة هو أبرز ما يتجلّى للعالم من الثقافة الفارسية . وفي
يقيني أن شاعراً آخر في العربية لم يجار هذا الشاعر الفارسي
الأصل في دقة الحوار وبروعته ، وشوق ينافسه بحق في روعة
التصوير للطبيعة لكن أباً نواس ينفرد بهذا السحر الذي لا يجارى
في تصوير الليل ، وهيا بنا نتأمل هذه الأبيات التي تمثل براءة أبي

نواس الفائقة في الحوار والتصوير معاً :

فِحْلَانْصَنْ قَدْ وَنِينْ مِنْ السَّفَارِ	قَلَائِصَنْ لِيَلَهْ لِيَلَا	وَخُمَارْ حَطَطَتْ لِيَلَهْ لِيَلَا
كَمْخُورْ شَكَا أَلَمْ الْخَمَارِ	فَجَمْجُمْ وَالْكَرَى فِي مَقْلَتِيهِ	
وَنْجَمْ الْلَّيلِ مَكْتَحِلْ بَقَارِ	أَبِنْ لِى كَيْفْ صَرَتْ إِلَى حَرِيمِى	
رَأَيْتِ الصَّبَعَ مِنْ خَلِ الْدِيَارِ	فَقَلَتْ لَهْ تَرْفَقْ بَسِيْ فَابِنِى	
وَلَا صَبَعَ سَوَى ضَوْءِ الْعَقَارِ	فَكَانَ جَوَابَهُ أَنْ قَالَ : صَبَع	
فَعَادَ الصَّبَعَ مَسْوَدَ الْإِزَارِ	وَقَامَ إِلَى الْعَقَارِ فَسَدَ فَاهَا	
مَحْفَرَةَ الْجَوَانِبِ وَالْقَرَارِ	فَحَلَ بِزَالَهَا فِي قَعْرَ كَاسِ	
مَصْوَرَةَ بِصُورَةِ جَنْدِ كَسْرَى	وَكَسْرَى فِي قَرَارِ الطَّرْجَهَارِ	
وَحْلَ الْجَنْدِ تَحْتَ رَكَابِ كَسْرَى	بِأَعْمَدَهُ وَأَقْبِيَهُ قَصَارِ	
فَهَا هُوَ الْخَمَارُ يَبْدِي ضَيْقَهُ بِهَذِهِ الْزِيَارَهُ التِي قَطَعَتْ عَلَيْهِ نُومَهُ		
وَأَفْقَدَتْهُ رَاحَتَهُ بِهَذِهِ الصُورَهُ التِي تَجْعَلُ نَجَمَ الْلَّيلِ مَكْتَحِلًا		
بِالْقَارِ... إِنَّهَا صُورَهُ مُنَاسِبَهُ تَامًا لِالتَّعْبِيرِ عَنِ الضَّيْقِ وَالْأَسْتِيَاءِ، ثُمَّ		
إِنَّ الْقَارِ مَنَاسِبَهُ أَيْضًا لِلْغَةِ الْخَمَارِ الَّذِي يَتَعَامِلُ مَعَ هَذِهِ الْمَادَهُ فِي		

سد أقواء الدنان كما يذكر أبو نواس كثيرا في خمرياته ، وهكذا
تتعطف الصورة في الشق الأيسر من هذا البيت نحو الشق
اليمين : ابن لى كيف صرت إلى حريمي ؟ واختيار الشاعر
لكلمة حريمي هنا اختيار موفق إلى أبعد حد في هذا الموقف لأنها
تحمل دلالة المنع والتحريم وكأن الخمار يريد أن يكون طرق بابه
محرما في هذه الساعة من الليل ، ونستطيع أن نتبين مدى توافق
الشاعر في اختيار هذه الكلمة بالذات في هذا الموضع والموقف لو
أبدلناها بكلمة أخرى تشق نفس الحيز النغمي مثل مكانى أو
ديارى أو غيرها عندئذ تحس أن القيمة الدلالية للبيت قد فقدت
الكثير جدا من سحرها وغنى الإيحاء فيها لأنها لا تتحقق ما حققته
كلمة «حريمي» من الدلالة الدقيقة على نفسيه الخمار في هذا الموقف
 تماما كما تحمل الكلمة القار في قافية البيت دلالة مماثلة تتسمج مع
لون السؤال بكل ما فيه من كابة واستياء.

وتاتي إلى البيت التالي الذي يحمل حديث الشاعر راجيا الخمار
أن يتطرق به لأنه لم يطرق بابه إلا بعد أن رأى تباشير الصباح من

خلال الديار ! وبذلك تتعطف رؤية الشاعر للصبح في الشق الأيسر
من البيت باعتبارها عذرا يوجب الرفق المطلوب في الشق الأيمن ،
ويدور تيار المعنى في البيت بين هذين القطبين وهو تيار يقويه ويعيشه
الحرارة والضوء فيه هذه الرؤية من خلال الديار حيث تزدئي كلمة
خلل هنا بدورها الرائع في عدم التبين الكامل للشاعر في رؤيته
الصبح .. لقد رأه من «خلل» الديار ويكون هذا رد «البرىء»
الذكي من جانب الشاعر بمثابة الماء الذي أخمد نار الغضب
والاستياء من جانب صاحب الحانة فقد أرضاه كثيرا لأنه أدرك أن
الصبح الذي توهّمه الشاعر ليس إلا الضوء المتبعث من خمره !

فكان جوابه أن قال صبح ؟ ولا صبح سوى ضوء العقار
تأمل معى قوله فكان جوابه لأنها تدل على فترة صمت قصيرة
تحول فيها الخمار من الغضب إلى الرضا ، ولو لم يكن نظام هذا
الشعر أبانواس ببراعته الفائقة لكتب على الفور على سبيل المثال :
فرد بدھشة : أتقول صبح ؟ ولا صبح سوى ضوء العقار
أو : فرد بقوله أتقول صبح أو لقال شيئاً شبيهاً بذلك يحمل رد

الخمار الذى يأتى هنا فوريا ولا يحمل هذه الدلالة البارعة الرائعة
التي تشير إلى هذه الهنية من التحول النفسي للخمار إلى الرضا
فى قوله :

فكان جوابه أن قال صبح ؟ ولا صبح سوى ضوء العقار
إن تساؤله فى آخر الشق الأيمن من البيت يحمل تلك الدهشة
التي تحول بها الموقف تحولا تماما . الدهشة من سذاجة الشاعر
تلك التى جعلته يتعاطف معه ، لكن هذه الدهشة نفسها سرعان ما
تحولت إلى زهو وفخر فى الشق الأيسر من البيت فليس هذا
الصبح إلا ضوء عقاره الجيدة التى تشغ الضوء كما يشع الصبح
نفسه ، وهكذا ينطعف الصبح الذى أشرق من العقار نحو الصبح
الذى توهمه قاصد الحانة فى هذه الساعة من الليل ليدور تيار
المعنى هذه الدورة الفاتنة الناعمة ، وإذا بالخمار ينهض ليؤكد
للشاعر أن هذا الصبح الذى توهمه هو حقا صبح العقار وضوئها
فى غمرة زهوه بخمره الذى أنساه ما اعتبراه من ضيق وغضب :

وقام إلى العقار فسد فاما فعاد الليل مسود الإزار

وها هو صاحب الخمر يصيّبها للشاعر في كأس تحمل النقوش
الفارسية التي اعتاد أبو نواس أن يرسمها بالكلمات في خمرياته :

محقرة الجوانب والقرار فحل بزالها في قعر كأس

وكسرى في قرار المترجمهار مصورة بصورة جند كسرى

وحل الجند تحت ركاب كسرى بأعمدة وأقبية قصار

الست معنى في أن كلمة محقرة في الشطر الأيسر من البيت
الأول توحى بهذا الفن الذي أداه صاحبه في توذة وحذق رغبة في
الاتقان .. إن يده لم تحفر وإنما حفرت بتشديد الفاء ، وهو هو
الحيز النغمي في أول الشطر الأيمن من هذا البيت كأنما هو مهياً
فيه لهذه الكلمة بالذات بإيحائها الدقيق العميق الغنى ، إنه حيز لا
يصلح لكتمة أخرى دالة على فن الحفر ! وهكذا يتحقق ما أسميه
معادلة الفكر والنغم في هذه الكلمة بالذات نافية ما يقال من أن
مقتضيات النغم تجعل الشاعر يتحرك بالمعنى حرفة المقيد المكبّل
بالاعلال ، فائين هذا مما نراه في مثل هذه الكلمة التي تحقق
المطلب النغمي وتحقق معه في نفس الوقت هذا الإيحاء القوى

الرائع في تصوير عملية الحفر على المادة بكل هذه الكفاءة والدقة
وكان هذا التطلب النغمى يدفع الشاعر دفعاً إلى هذا الاختيار
الموفق الدقيق.

ولتأمل كيف شملت نظرة الشاعر الكأس كل ما به من روعة فين
الحفر .. إنها نظرة شملت في هذا الحيز الموسيقى الصغير الكأس
بجوانبه وقراره .. صحيح أن الكأس شيء صغير ولكن النظرة
الشاملة هي النظرة الشاملة في قيمتها الفنية :

وحل بزالها في قعر كأس محفورة الجوانب والقرار
ففي كلمتين اثنتين شمل الشاعر كل الكأس وكل ما في الكأس
من عمل فني ، انه يجعلنا ندور معه حول الكأس في كلمة الجوانب
ثم تأتي القافية لتقطعى النظرة ما يبقى من الكأس من قرار . فنحن
 أمام اختيار موفق كل التوفيق للكلمات قبل أن يأخذ في البيتين
 التاليين لهذا البيت في تفصيل النظرة الكلية الشاملة للكأس ، أما
 الجوانب فقد حفرت فيها صورة جند كسرى وأما القرار فيه
 صورة كسرى نفسه .. ففي هذا البيت تفصيل محكم دقيق لجوانب

الكأس ولقراره ، ولا يكتفى أبو نواس بهذا المقدار من التفصيل بل
يزيد رسم الصورة تفصيلاً في البيت التالي بحالة جنود كسرى في
هذه الصورة فقد حلوا تحت ركاب ملتهم بهذه الأعمدة وهذه الاقبة
القصيرة ..

إتنا في الأبيات الثلاثة أمام صورة يبدأ الشاعر بوصف كلٍّ
شامل لها يتبعه مباشرة بوصف تفصيلي محكم دقيق محيط بكلٍّ
جوانبها وبهذا يتحقق جوهر الفلسفة حتى في رسم الشاعر لهذه
الصورة .. صورة الكأس وما تحمل من عمل فني ، وهكذا لا يقف
أثر العقلية الفلسفية عند نظريات الفلسفة والمنطق ونقلها ببراعة إلى
فن الشعر بخمرياته وغزلياته ومديحه من نظرية للتوليد ومن مبدأ
الهوية ومن الطبائع الأربع ومن رؤية للوحدة في الأشياء المتنوعة بل
المتضادة وغيرها كما رأينا من قبل ، وإنما يمتد أثر الفلسفة إلى ما
تراه العين من الأشياء في هذا الوجود لتحقق فيها جوهر الفلسفة
من شمول وإحاطة نرى نموذجاً لها في رسم الشاعر بكل هذه
البراعة لهذه الكأس ونراها كذلك في قوله :

لما رأيت محل الشمس في الأفق وضوؤها شامل للدور والطرق
صغيرتها لتي أحبتها مثلا اذ لا ينالها شيء سوى الحدق
أرأيت كيف يشمل الشاعر السماء والأرض في البيت الأول بهذه
النظرة الكلية المحيطة الواسعة التي لم تخل من دقة العلم وعمقه
مثلاً فيما ذكرناه فيما سبق من دلالة قوله محل الشمس على إدراك
لا بستهان به بحركة الشمس اليومية الظاهرية ؟ أرأيت إلى قوله
وضوؤها شامل للدور والطرق كيف ينتقل الإدراك الفلسفى الذهنى
إلى الإدراك البصرى وكيف يكون صورة أو امتداداً له عند هذه
العقلية التي تشبع بالفلسفة وبإدراكها العميق لجوهرها إلى هذا
الحد الذى رأيتها فيما سلف ... ماذا تركت النظرة الكلية المحيطة
الشاملة من منظر السماء والأرض فى هذا البيت الواحد ؟ ومعنى
ذلك أن العقلية الفلسفية تتغلب نفس العقلية من إحاطة بعلم ما فى
شتى جوانبه إلى إحاطة بمنظر طبيعى ، إلى الاحاطة حتى بكأس
محلاة برسوم فنية ! ولهذا فإن مثل هذه العقلية تتغلب هي فى
عظمتها حتى وهى تتناول أصغر الأمور وأقل الأشياء شأنًا ، لأن

الاشاعع الضوئي من مصدر ما والاشاعع الفكري من عقل ما يظل
هو هو بفتحه وفقره في مختلف الموضع أو المواقف.

هكذا تتجلّى الثقافة الفارسية في هذا النموذج من شعر أبي
نواس بقصصها التي تستمد معظم سحرها من الليل ، ومن الحوار
الحى الدقيق البارع والرسوم البدوية للوك فارس ومجدهم الذى
يبني فى أكثره على الأمجاد الحربية والحياة المنعة وسط الطبيعة
القاتنة .

وديوان أبي النواس الضخم مليء حتى حافته بهذه العناصر
الأساسية من الثقافة الفارسية التي اشتهرت مع الثقافة العربية
واليونانية في تكوين هذا المركب الغنّى من فكر أبي نواس ، على أن
ما أكسب هذه الثقافة الفارسية عمّقاً وغنى نجاح الشاعر في
مزجها بالفلسفة فيما تنضي إليه النّظرة الشاملة المحيطة من موقف
معين يتّخذه الفيلسوف بناء على هذه النّظرة نفسها ، ومعلوم أنّ ابا
نواس اتّخذ في حياته مذهبينا معيناً وخاصة بعد إخفاقه التّدريجي
المتساوّي في حب جنان ، هو مذهب اقتناص اللذة الحاضرة وهو

مذهب قديم قديم الحضارة البشرية نفسها تراه في الأدب المصري
القديم وفي الفلسفة اليونانية بل تراه في الشعر الجاهلي وهو نفس
المذهب الذي نادى به الخيام في رباعياته التي سحرت الغرب
الأوربي في إبان نهضته الحديثة ومذهب الخيام وأسلوبه في الدعوة
إليه هو نفس مذهب أبي نواس سواء بسواء من الدعوة إلى الخمر
واللهوى ، والتركيز على الحاضر ولذاته دون نظر لماضي أو اعتبار
لمستقبل وهذا تصب النزعة الفلسفية التي تشبع بها أبو نواس على
علم بالفلسفة كما رأينا فيما سبق .. تصب في هذا الموقف الذي عبر

عنه أبو نواس بأكبر قدر من الوضوح في قوله :

غدوت على اللذات متلهك الستر وأفدت بنات السر مني إلى الجهر
وهان على الناس فيما أريده بما جئت فاستقنت عن طلب العذر
رأيت الليالي مرصدات لذاتي فبادرت لذاتي مبادرة الدهر

وكفوس الخمر عنده خير من كفوس المثابا التي تدور على أولئك
الذين يفضلون حياة الحرب :

فلا خير في قوم تندو عليهم كفوس المثابا بالثقة السمر
تحييتم في كل يوم وليلة ظبا المشرفيات المزيرة للقبر

لقد أردت في هذا البحث أن أحصل على عناصر التركيب الدقيق
ل الفكر الشاعر من شعره نفسه وليس من الأخبار التي تصور لقاءه
برجال العلم في عصره والشيخ الذين تلقى عنهم وأماكن الدرس
التي اختلف إليها، لكن أبا نواس نفسه يقدم لنا في شعره صورة
جميلة لاختلافه إلى أماكن الدرس في شبابه في البصرة ويدرك
رفاق العلم في هذه المرحلة الغضة من العمر بحنين عميق .. إنه
بالفعل يرسم لنا صورة تذكارية لأيام الدرس ورفاقه وهي صورة
عزيزة على كل إنسان :

عفا المصلى وأقوت الكتب مني فالمريدان فاللبيب
عن عفا فالصحان فالرحب فالمسجد الجامع المروءة والدي
حتى بدا في عذاري الشهب منازل قد عرفتها يفعا
في فتيه كالسيوف هزهم شرخ شباب وزانهم أدب
لم يخلف الدهر مثالم أبدا على ، هيهات .. أمرهم عجب !
فنحن أمام شاعر تلقى في صباح ما يمكن أن نسميه تعليما
منظما في مركز مرموق من مراكز العلم في هذه العصور ولكن

تنوع عناصر فكر أبي نواس وألوانه تدل على أنه لم يكتف بما تلقاه في هذا التعليم وإنما كان له اطلاعه خارجه وبعده على جوانب شتى من ألوان المعرفة فيما لاحظ في شعره من فلسفة ومنطق وفلك وحديث وفقه ومنهج للعلم ومن تاريخ وغيره يضاف إلى ذلك حس فني رهيف وتنوّق نادر لروائع الشعر العربي جعل هذا الشاعر يتفرد من دون سائر شعراء العربية بتضمين شعره أبياتاً من

الشعراء السابقين له في مثل قوله :

وهات .. ففنتى بيتي نصيب فقد وافاني القدر المدار
«ولولا أن يقال صبا نصيب» أقلت بنفسي النشا الصفار»
«بنفسي كل مهضوم حشاما إذا ظلمت فليس لها انتصار»

أو قوله :

حتى تفني وما تم الثالث له حل الشمائل محمود السجيات
يا ليت حظي من مالي ومن ولدي أنى أجالس لبني بالعشيات

وقوله :

وحتى تفني لا هيا متطربيا غناء عميد القلب نشووان ناحل
خليلى عوجا فى صدور الرواحل بجمهور حزوى فابكيا فى المنازل

أو قوله :

وعندنا ضارب يشدو بفطريتنا «يا دار هند بذات الجزع حبيت»
بهذا الملمح الفنى يتفرد أبو نواس عن شعراء العربية جمیعاً في
كل العصور ، وقيمة هذا الملمح أو الخيط فى النسيج الفكري للشاعر
هو اختياره لتلك الأبيات أو الشطوط التي تصور أعمق وأدق
المشارع الإنسانية في لمحه خاطفة في إطار هذه المجالس التي
انصرفت إلى اغتراف اللذة الحاضرة مما يضيف إلى صورة هذه
المجالس الخمرية في شعر أبي نواس بعدها فانياً متميناً .

وهذا الخيط من التنونق الفنى بصورة الفريدة في الشعر العربى كله
يتصل اتصالاً وثيقاً بخيط آخر من النزعة النقدية الفريدة أيضاً عند
أبى نواس هي موقفه من المقدمة الطالية في القصيدة العربية وهو
وقف شهير ألح الشاعر عليه إلحااحاً شديداً في شعره لكن أبا
نواس يفصل فصلاً تماماً بين تذوقه الفنى الرقيق الدقيق للمقدمة
الطلائية كما وصلت إليه من أصحابها الأصليين الذين عاشوا
مشاعر الفراق المستمر في الجزيرة العربية وعبروا عنها تعبيراً

وأقيعا حارا صادقا وبين موقفه النبدي، إنه يقدر الجمال الفنى فيها تقديرًا يتجلى بشكل عملى فى تضمينه لها فى أكثر اختياراته، لكنه من ناحية أخرى فى موقفه النبدي يعارض بشدة أن تستمر هذه المقدمة بعد نهاية الحياة المتنقلة التى كان يعيشها الجاهليون فى الجزء العربى قبل أن ينتقل العرب إلى حياة الحضارة بعد البداوة، التى عاشوها قبل الإسلام، وإلى اللور والقصور بعد الخيام، وهو يبرر موقفه النبدي هذا كما رأينا تبريرًا علميا بكل ماتحمله من العلم من معنى موردا هذا المنهج العلمى الذى أشرنا إليه فيما سبق فى هذين البيتين :

تصف الطلول على السماع بها
أفدو العيان كانت فى العلم
وإذا وصفت الشيء متبعا
لم تخل من خلل ومن وهم
قفى هذين البيتين نحن أمام ناقد عالم بكل معنى كلمة العلم، وهكذا
نستطيع أن نضيف إلى ما سبق من الخيوط فى تركيب النسيج
الفكري لأبي نواس خطيط التنونق الفنى والنزعة النقدية بهاتين
الصورتين النادرتين تماما فى تاريخ الشعر العربى بجميع عصوره.

واخيراً ..

هل أمكننا أن نثبت صحة القانون الذي أسلفناه في بداية هذا الكتاب من خلال القسم التطبيقي منه؟ إنما القانون الذي نرى فيه عدد الخطوط الفكرية يتناسب تتناسب ملبداً مع المقدرة الفنية للشاعر ، ولعلنا وجدنا الكثير من هذه الخطوط في تركيب الإشعاع المترافق لأبي نواس من الثقافات اليونانية والعربية والفارسية مما جعل هذا الإشعاع غنيا كل الغنى بما ثقفة الشاعر من الفلسفة بقضاياها الكبرى ومن منطق فلكل وعلم بالفقه والحديث وما أتقنه من فن التصوير والحوار ، إلى جانب تلك الثقافة الواسعة بالشعر واللغة مما هو واضح في أشعاره وخاصة في أراجيزه المتعددة.

إننا بالفعل أمام أمام عقلية غنية بأوان المعرفة التي امتزجت في شعاع واحد غنى قوى عميق التأثير تلحظه في معظم ما نقرأ من أعمال هذا الشاعر الذي أضاف إلى ذلك خفة الظل وحضور البداهة.

ولعلنا نكون قد وفقنا في استخلاص هذه المكونات أو هذه

الخطوط في فكر الشاعر بالتقاط الاشارات الدالة عليها من النص
الشعرى نفسه مع عرضها على الخافية الثقافية لغصراً أبي نواس
هذا العصر الذى كان بحق نزوة مبالغة الفكر فى أيام العباسيين
من ثراء ونشاط بالتفتح على مختلف الثقافات بالترجمة وكثرة
المكتبات و مجالس العلم والأدب والفن ..

ولعل هذا القانون الذى يربط براعة الشاعر بعدد الألوان الفكرية
كما يرتبط غنى الضوء بعدد الوانه وموجاته يكون هادياً لنا فى
تفسير التمييز فى المقدرة الفنية عند غير أبي نواس ، ولعل ذلك
يحفزنا على مزيد من البحوث التحليلية التى تتناول المكونات الدقيقة
مقنية الشاعر الكبير خلال تحليل النص الذى تشهى له ما يؤكد لنا
صدق هذا القانون وسلامة النظرية التى يقوم عليها .

المراجع

١ - أبو نواس : ديوان أبي نواس:

بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.

٢ - صلاح عيد : السيرة الذاتية لتوثيق الحكيم في كتابة سجن العمر
وزهرة العمر، الكتاب التذكاري لتوثيق الحكيم، القاهرة المجلس الأعلى
للفنون والأداب . ١٩٨٩

٣ - عبد العزيز صالح : الشرق العربي القديم:

القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١ ط ٣

٤ - لانسلوت هوجن: العلم للمواطن

القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٣

٥ - ALBERT, SHADOWITZ : The Electromagnetic Field, Mc. Grawhill Book

company. International Edition.



رقم الإيداع ١٩٩١/٩٦٨٦

I.S. B.N

977 - 00 - 2700 - 6

مكتب مشرف للطباعة بطنطا
٣١٩٦٨٥